ملك ولا كالملوك

امبراطور المانيا الحالي من أمضى ملوك الارض همة واصدقهم عزيمة واكثرهم اقداماً لا يأخذه كلل ولا ملل في كل ما من شأنه ان يرفع قدر شعبه بين الشعوب المختلفة . لما رأى ان بسمرك حجر عثرة في سبيل عزماته قذف به من حالق ولم يرعه كونه سياسي اوربا الاوحد في زمانه فلم تقم له قائمة بعد ذلك . وآثار الامبراطور واعماله تتكرر كل يوم وتتضوع فما من عمل كبير داخل بلاده الا وله اليد الطولى فيه ولا من حركة سياسية ذات شأن في سياسة الدول الا وله ثار مخبوءة تحت رمادها . على انه اذا ذكره التاريخ فانما يذكره بمساعيه المتوالية في ترقية البحرية الالمانية بل في تأسيسها لانها لم تكن شيئاً مذكوراً قبل عهده واذا كني بشيء فانما يكنى بابي البحرية الالمانية

كتب بعضهم مقالة في مجلة القرن التاسع عشر اتى فيها على تاريخ علاقة الامبراطور بالبحرية الالمانية منذ تولى سرير الملك قال

لا يزال الشيوخ من اهل بورتسموث يتذكرون غلاماً كانوا يرونه يتمشى احياناً على الرصيف وهو يرقب البوارج في دخولها الى الميناء وخروجها منه بمزيد الاهتمام والانتباه . فهذا الغلام هو امبراطور الالمان الحالي . فانه لما كانت الملكة فكتوريا جدته في قيد الحياة كان يزورها صيفاً في اوسبورن واستأجر ابوه قصر نوريس في ضواحي كوس ايام كان ابوه ولياً للعهد وسكنه هو وعائلته عدة اشهر فكان للامبراطور الحالي فرصة لتحقيق اعظم امانيه من مراقبة حركات البوارج الانكليزية عن كثب وفحصها فحصاً دقيقاً . وكانت السلطنة الالمانية في ذلك الحين بلا اساطيل تذكر ولما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا لم تكن سفن الالمانيين القليلة تستطيع النزول الى ميدان القتال وكانت فرنسا تستطيع حصر سواحل بروسيا بلا مانع . فهذه الامور كانت تخطر في بال الامبراطور عند زيارته لانكلترا فعقد النية على انشاء اسطول كبير لامته عند ارتقائه الى سرير السلطنة الالمانية . وخطب مرة فقال " لما آلت اليّ مقاليد الملك شرعت في تقليد ما كنت اراه في انكلترا ايام كنت ازورها يافعاً (اشارة الى الاساطيل) ولكن على درجة تلائم موارد امتي ومصالحها " وكان بسمرك حينئذٍ وزيره الاول فرأى في مثل الخيال اهمية الاساطيل لالمانيا اذا شاءت أن تكون صاحبة الكلمة المسموعة في السياسة الاوربية وان تفتح الابواب في وجه تجارتها وتمهد السبل لتوسع سكانها ولكنه لم يستطع مجاراة الامبراطور في اندفاعه الشديد فقصر عنه واستلم الامبراطور دفة

السياسة الالمانية بنفسه . ولم تمضِ عشر سنوات حتى اوقع في نفس قومه ان لا غنى لهم عن اساطيل ضخمة عزيزة تحمي ذمارهم وذلك بما كان يفتقه كل يوم من اساليب الدهاء فتقرّ القرار اخيرًا على اتخاذ مشروع بهذا القصد يعدّ اعظم مشروع اقدمت عليه امة من الامم

وبيان هذا الاجمال ان الاساطيل الالمانية متصيح بعد عشر سنوات اعزّ اساطيل الدول كلها ما عدا اساطيل انكلترا وتعدّ اعجب عمل سياسي تمّ على يد رجل واحد لانها صنيعة الامبراطور . ولما اقترح انشاء بحرية عزيزة نظر شعبه الى اقتراحه بعين ملؤها الاهمال والايجاس لا سيما وانهم كادوا ينوءون باثقال العسكرية فاخذوا يتساءلون فيما بينهم قائلين وما عسانا ان نستفيد اذا زدنا على حمل جيشنا الضخم حمل اسطول ضخم يحمي سواحلنا ويستطيع المحوم لحماية مستعمراتنا النائية عند الضرورة . فعانى الامبراطور الصعاب حتى حمل قومه على الاذعان لرأيه وتحقيق آماله

وفي سنة ١٨٨٩ عينته الملكة فكتوريا اميرال شرف البحرية الانكليزية عند زيارته لساق القوارب في كوس وهو الرجل الاجنبي الوحيد الحائز لهذه الرتبة السامية في البحرية الانكليزية . ولكنه اغتنم الفرصة وحوّل الرتبة من رتبة شرف الى رتبة عمل وتفصيل الخبر انه خرج ليختلو للطواف في البحر المتوسط وزار اثينا لحضور الاحتفال بزواج شقيقته الى ولي عهد اليونان وكان الاسطول الانكليزي قد اجتمع في مياه بيريوس للاشتراك في الحفلة بقيادة السر انتوني هسكنس ورتبته نائب اميرال . فعزم الامبراطور على تولي قيادة الاسطول لانه ارفع رتبة من قائدهم في البحرية الانكليزية فذهب الى البارجة " دردنوط " فتولى قيادة اعظم اسطول من اساطيل انكلترا واضطر قائده ان يتنازل له عن قيادته لانه اصغر منه رتبة وسار عليها يفتش بوارج الاسطول . وخطب فيما بعد على ظهر البارجة " رويال سفرن " واشار الى الحادثة الآنفة الذكر وقال وان من احسن ايام حياتي التي لا انساها ما دمت حيًّا تمهدي لاسطول البحر المتوسط من ظهر البارجة " دردنوط "

وتمهد مرة الاسطول الانكليزي في مياه مالطة . وذلك انه وصل مالطة ذات مرة وهو يطوف في البحر المتوسط فاطلع عزمه على تفتيش احدى بوارج الاسطول في اليوم التالي وتوجه الى ظهر البارجة ورفع رايته عليها . وكان يظن انه يكتفي بالمسير على ظهرها وتناول المرطبات بعد ذلك . ولكنه لم يكد يصل اليها ويستقبل رسميًّا فيها حتى خلع حلته الرسمية وقال انه مستعد لتفتيش البارجة . فطاف فيها من طرف الى طرف ومن اعلاها الى اسفلها ولم يترك كبيرة ولا صغيرة الا رآها وسأل عنها حتى كل قبطان البارجة ونهي المشروبات

التي كانت قد اعدّها لاكرامه بها . ولما اكمل التفتيش وهمّ بالانصراف وقف على رأس سلم البارجة والتفت الى القبطان وقال " لا بدّ ان بارجتك اطول بارجة في البحرية الانكليزية " فقال القبطان " لا اظنّ ذلك فان طولها ٤٢٠ قدماً فقط " فقال الامبراطور " بل انت غلطان " وحينئذٍ تذكر القبطان ان مراد الامبراطور بالطول طول الفترة بين طعام وطعام وهو اصطلاح عامي بين البحارة لا يعرفهُ سواهم فاعتذر للامبراطور على ما فرط من الاهمال وتوسل اليهِ ان يعود معهُ الى غرفة الطعام ويتناول شيئاً فابى ولكنهُ قال لهُ " في ٢٧ يناير عيد مولدي واوامري اليك هي انهُ اذا جاء ذلك اليوم فأولم وليمة لاخوانك واشربوا نخبي "

ولما جاء اليوم المذكور اولمت الوليمة وشرب الضباط على ذكر الامبراطور وارسلوا اليهِ رسالة برقية قالوا فيها " قد أنفذت اوامر امبراطنا وشربنا نخب جلالتكم . ولكن هناك امرٌ لا نستطيع موافقة جلالتكم عليهِ وهو ان بارجتنا طويلة " ففهم الامبراطور المراد من ذلك حالاً

وكان الامبراطور يعتقد منذ بادىء الامر انهُ يستطيع انشاء اسطول ضخم من غير ان يوغر صدور اهالي انكلترا عليهِ وكان كذلك فانهُ باح بعزمهِ على انشاء الاسطول وقال انهُ يروم انشاءهُ على مثال الاسطول الانكليزي فسرَّ الانكليز بذلك وعطفوا عليهِ لجهلهم ما يرمي اليهِ ولم يستفيقوا من غفلتهم حتى حدثت غارة جيمسون المشهورة وارسل الامبراطور رسالتهُ البرقية الى الرئيس كروجر يهنئهُ فيها بانتصار قومهِ على رجال جيمسون فحملوها على محمل سيء وجهزوا اسطولهم في شبيتهد لمقابلة الطوارىء مع انهُ اكد لهم مراراً وتكراراً بعد ذلك انهُ لم يرد بهم شرّاً اعتقاداً منهُ ان غارة جيمسون انما كانت حركة ثورة ناشئة عن طيش وجهل . ولكن تلك الرسالة البرقية وتجهيز الانكليز لاسطولهم ساعدا الامبراطور على بلوغ رأيهِ لانهما اثارا سواكن الامة الالمانية واقناعها بوجوب موافقة الامبراطور على تكبير الاسطول . وعليهِ وافق مجلس النواب الالماني سنة ١٨٩٨ على ذلك ولكن الامبراطور لم يكتفِ بهِ . وكان الزمان كان يجاريهِ على مرادهِ فحدثت حرب الانكليز والبوير وجرَّت الى مشاكل مع المانيا بسبب بيع تجار الالمان الذخائر الحربية للبوير . ورأى اهل التجارة الالمانية اذ ذاك ان حكومتهم لا تستطيع ان تبقي باب الكسب مفتوحاً في وجوههم من بيع الاسلحة بسبب ضعف الاسطول الالماني فتفهموا معنى القوة البحرية وادركوا لزومها لاسيما وانهم رأوا روسيا تسرح وتمرح في الشرق الاقصى وانكلترا لا تمدُّ يداً لمقاومتها لاعتقادها بقوة الاسطول الروسي . فلم يأتِ ربيع سنة ١٩٠٠ حتى وافق مجلس النواب الالماني على لائحة جديدة لتكبير الاسطول بحيث يكون لالمانيا سنة ١٩١٧ ثمانٍ وثلاثون بارجة وعشرون طراداً مدرعاً

كبيراً وثمانية وثلاثون طراداً للاستطلاع ومئة واربع واربعون سفينة للتوريد

واتفق ان الطرادات الانكليزية قبضت في تلك الاثناء على بواخر المانية في خليج دلاجوى لاشتباهها في تهريب المؤن والذخائر الى البوير فأقام الخبراء المانيا واقعدهم وغفت مراجل الغم والحقد في صدورهم على الانكليز فأرسل الامبراطور رسالة برقية الى ملك ورتمبرج أمل فيها "ان حوادث الايام الاخيرة أقنعت الذين لم يقتنعوا بعدُ انهُ لا غنى لالمانيا عن المحافظة على شرفها ومصالحها في عرض البحار فلا بدَّ لها ان تكون عزيزة بحراً كما انها عزيزة برًّا"

وما زال الامبراطور يطلب المزيد في سبيل تعزيز البحرية الالمانية ورأى ان شعبهُ في حاجة الى ما يشدّد عزائمهُ فسعى سعياً متوالياً افضى الى انشاء جمعية البحرية الالمانية برعاية شقيقهِ البرنس هنري . ويقال انهُ ما من جمعية من الجمعيات التي أُلفها الناس في كل زمان ومكان كان لها من الوقع في النفوس ما لهذهِ الجمعية من الوقع في نفوس الالمانيين. ولها فروع في جميع انحاء السلطنة الالمانية والالمانيون يعدُّون الانضمام اليها شرفاً ودليلاً على الولاء لان شقيق الامبراطور رئيسها ولانها أُنشئت لنشر آراء الامبراطور في ما يتعلق بالبحرية . وقد زاد عدد اعضائها الى الآن على نصف مليون ولها ايراد قدرهُ ٣٠٠٠٠٠ جنيه سنويًّا

ومن الوسائط التي تذرع الامبراطور بها الى ترسيخ المبادىء البحرية في اذهان قومهِ اشتغالهُ هو نفسهِ بذلك قولاً وعملاً . فانهُ خطب ذات يوم على اعضاء مجلس النواب ساعتين في مستقبل الاسطول الالماني وايَّد اقوالهُ برسوم كان قد رسمها بيدهِ. وأرسل اليهم مرة أُخرى احصاء مدققاً بقوة جميع الاساطيل العظمى. ولهُ اليد الطولى في تعيين الانموذج الذي يراد بناء البوارج عليهِ لانهُ مهندس ماهر حتى قال فيهِ احد مديري الترسانة الانكليزية انهُ لا يظنُّ ان بين اميرالية الانكليز من يعرف دقائق البوارج وكل آلة فيها مثل امبراطور الالمان

ومن مساعيهِ بهذا الصدد جعلهُ كيال محط الانظار باقامة سباق اليخوت فيها كلَّ عام فيتقاطر اليها الاغنياء والكبراء من كل حدب وصوب حتى فاقت كوس في ذلك . وما انفكَّ منذ ارتقى الى سرير السلطنة الالمانية يشجع شركات البواخر الالمانية على العمل باقوالهِ وافعالهِ حتى اغتصبت السيادة على الاتلنتيكي من شركات البواخر الانكليزية . ويكفي ان يقال فيهِ انهُ لما آل الحكم اليهِ كان الالمان يعتقدون ان انكلترا صاحبة السيادة التي لا تنازع على البحار فما زال بهم حتى اقنعهم بالخلاف وان مستقبلهم على البحار . وهو ينفق ايام عطلتهِ يتنقل على يختهِ من مكان الى مكان مع انهُ يصاب بالدوار اذا اشتدت الانواء . وحيث رسا يحثُّ اوسار فهناك تشخص الابصار وتحوم الافكار على ملك لاهمَّ لهُ الاَّ اعلاء البلاد واسعاد العباد